

في حوار مع ديفيد بارساميان

أرونداتي روي: أنا مهتمة بفيزياء التاريخ

رغم أن شهرتها تعود إلى حصولها على جائزة البوكر البريطانية للرواية عن روايتها اليتيمة «إله الأشياء الصغيرة» (1997) إلا أن الكاتبة الهندية أرونداتي روي معروفة في الهند والعالم لكونها تنشط ضد العولمة والإمبريالية، وبناء السدود الضخمة في الهند. وكذلك ضد التسليح النووي، وأخطار القنبلة النووية، التي تتباهى كل من الهند وباكستان بامتلاكها. وقد كتبت روي عددا من الكتب، التي لاقت رواجاً كبيراً في العالم الناطق بالإنجليزية، وكذلك في بلدها الهند، وكلها تدور حول السياسات الكونية والعولمة المتوحشة، والحرب على الإرهاب، وعودة الاستعمار الأمريكي لينتشر على الأقدام في بعض المستعمرات الغربية العتيقة.

في تلك الكتب التي تجمع بين صيغة التضامن، مع من لا يملكون القوة، والتحليل الذكي والخلاق، تعمل الروائية الهندية الشابّة (مواليد 1961) على سرد وقائع محددة ومتابعتها بالتحليل وضرب الأمثلة.

ينطبق هذا التوصيف على كتبها: «نهاية الخيال» (1998) (The End of Imagination) و«ثمن العيش» (The Cost of Living) (1999) و«علم جبر العدالة اللانهائية» (2001) (Algebra of Infinite Justice) و«سياسات القوة» (2001) (Power Politics) و«حديث الحرب» (War Talk) (2003). وقد أصدرت مؤخرا كتابا جديدا عن دار نشر فلامينغو البريطانية في عنوان «دليل القارئ العادي إلى الإمبراطورية» (The Ordinary Person's Guide to Empire) (2004)، وهو يجمع عددا من مقالاتها التي نشرتها خلال السنوات الثلاث الأخيرة. كما أصدر الصحفي والناشط والإذاعي الأمريكي ديفيد بارساميان حوارا مطولا معها على شكل كتاب يتناول فيه عددا من القضايا التي تهتم بها روي، ووضع له عنوانا شديدا الإحياء «دفتر الشبكات وصاروخ كروز» (The Chequebook and the Cruise-Missile)، وقد نشرته دار هاربر بيرينيال البريطانية كذلك في نهاية العام الماضي (2004).

في هذين الكتابين اللذين يكمل أحدهما الآخر، موضوعا وفكرا والتزاما بالقضايا التي تنشط أرونداتي روي للدفاع عنها في الهند والعالم، يقع القارئ على لحمة تفكير الكاتبة الهندية الشابة ورؤيتها لقضايا العولمة والرأسمالية المتأخرة والإمبريالية الجديدة التي تعود إلى استخدام الآليات التي استخدمتها الاستعمار الأوروبي القديم. وما يلفت الانتباه في هذين الكتابين، اللذين يقدمان قراءة نثرية مباشرة لموضوع روايتها «إله الأشياء الصغيرة» التي تحكي عن البنية الاجتماعية المعقدة للهند المعاصرة، هو الحس الإنساني العالي الذي يغلف كتابة روي وكذلك حوارها البارع الشديد الذكاء مع محاورها ديفيد بارساميان الذي سبق أن أصدر عددا من الحوارات المطولة مع نجوم تشومسكي، وإدوارد سعيد.

يدور كتاب روي «دليل القارئ العادي إلى الإمبراطورية» حول مشكلات اللحظة الراهنة والاندفاع الأمريكية إلى قلب العالم القديم، حول عودة الاستعمار ومواجهة الإمبراطورية، وصناعة أمريكا لنوع من الديمقراطية القشرية التي يمكن تسويقها على طريقة (اشتر ديمقراطية وأحصل على أخرى كهدية). ومن هنا تبدو المقالات التي يضمها هذا الكتاب الصغير الحجم (157 صفحة من القطع الصغير) حادة، قاطعة، لامعة الذكاء، وقادرة على قول الكثير بكلمات قليلة؛ ما يجعل أرونداتي روي أقرب إلى نجوم تشومسكي الذي تتحدث الكاتبة الهندية، في مقالة عنه ضمها الكتاب، عن وحدته ومثاله النادر في زمان العولمة وموت الحقيقة. وما يجمع روي بتشومسكي ليس الالتزام الأخلاقي الذي يحمله الاثنان تجاه قضايا المستضعفين في الأرض، بتعبير فرانز فانون، بل تركيز عملهما على بنية السلطة وأشكال اشتغالها، على ما تسميه روي:

فيزياء السلطة، وجنون عظمتها، وقسوتها التي لا حدود لها .

من تحليلها لأمثولة التاريخ بدءا من فلسطين، وما جرى لأهلها بسبب الاستعمار الأوروبي في العقد الثاني من القرن الماضي، وصولا لأحداث أيلول الرهيبة عام 2001 في كل من نيويورك وواشنطن، تركز أرونداتي روي على الأخطار التي تهب على البشرية جمعاء بسبب ديمقراطية السوق، وتحول المبادئ الديمقراطية الغربية إلى سلعة تسوق لأغراض الغزو والسيطرة وافتتاح أسواق جديدة للشركات المتعددة الجنسية. وهي ترى أن على الأمريكيين أن يقرؤوا ما يكتبه تشومسكي لكي يتعرفوا على الوجه البشع الذي يقيم خلف كلمة «الحرية» الجميلة المشعة التي تروج لها المؤسسات الأمريكية السياسية والاقتصادية والثقافية السائدة. تكتب روي:

«في حديثه عن هجمات 11 أيلول في نيويورك وواشنطن، أطلق الرئيس جورج دبليو بوش على أعداء الولايات المتحدة وصف «أعداء الحرية». ويضيف: «يتساءل الأمريكيون لماذا يكرهوننا؟» ويجيب: «لأنهم يكرهون الحرية، حريتنا الدينية، حرية التعبير لدينا، حريتنا في الإدلاء بأصواتنا وانتخاب ممثلينا، وحريتنا في الاختلاف».

لكن إذا أراد شعب الولايات المتحدة إجابة واقعية للسؤال (أي إجابة تختلف عن تلك الواردة في «دليل الأغبياء لمناهضة الأمريكان»: يكرهوننا لأنهم يحسدوننا، لأنهم يكرهون حريتنا، لأنهم فاشلون، لأننا أخيار، وهم أشرار) أقول: اقرأوا تشومسكي. اقرأوا ما كتبه تشومسكي عن تدخل أمريكا العسكري في الهند الصينية، وأمريكا اللاتينية، والعراق، والبوسنة، ويوغوسلافيا السابقة، وأفغانستان والشرق الأوسط. لو أن الناس العاديين في الولايات المتحدة قرؤوا تشومسكي، ربما كانت الأسئلة اتخذت صيغا أخرى، ربما أصبحت على النحو التالي: «لماذا لا يكرهوننا أكثر؟»، أو: «أليس من الغريب أن أحداث 11 أيلول لم تقع قبل هذا التاريخ بكثير؟» (دليل القارئ العادي إلى الإمبراطورية، ص: 48 - 49)

من هنا يبدو تشومسكي، وكذلك روي ومحاورها ديفيد بارساميان، شهودا على الإمبراطورية الجديدة، كما كان جوزيف كونراد في «قلب الظلام» شاهدا على الإمبراطوريات الإمبريالية الآفلة. وفي هذه البؤرة بالذات يلتحم عالم أرونداتي السردى بكتابات السجالية والمنافحة عن الفقراء والضعفاء وشهداء الإمبراطورية. في «إله الأشياء الصغيرة» تذكر روي برواية «قلب الظلام» وتكثر من الإشارة إليها وإلى بطلها كيرتز الذي تقيم أرونداتي بينه وبين إحدى شخصياتها (الإنجليزي صاحب «بيت التاريخ») علاقة شبه على مدار فصول الرواية،

محاولة، من خلال ذلك، أن تذكر القارئ بطبيعة المهمة المعقدة للرحلة التي قام بها كيرتز إلى قلب الظلام في أفاسي إفريقيا؛ إن مهمة كيرتز في رواية جوزيف كونراد تشبه مهمة ذلك الرجل الإنجليزي الذي انتحر تاركا «بيت التاريخ»، أو بالأحرى «بيت الأشباح»، ليكون شاهدا على اللقاء المستحيل بين الطبقات في الهند بسبب ألعيب السياسة ورغبة السلطة في استخدام نظام الطبقات للوصول إلى صناديق الانتخابات.

مقاطع من الحوار:

ديفيد بارساميان: حدثني عن كيرالا حيث ترعرعت. إنها مكان متفرد في الهند لأسباب كثيرة، فهي متعددة الأديان، نسبة الأمية فيها منخفضة، وهي تخلو نسبيا من أشكال العنف الطائفي الذي ينتشر مثل الطاعون في أجزاء أخرى من الهند.

أرون داتي روي: كيرالا هي المكان الذي تتلاقى فيه الأديان العظيمة، المسيحية والهندوسية والإسلام، والماركسية [تضحك]. إنها تحتك ببعضها بعضا وتتحوّل وتصير شيئا جديدا. من الناحية السياسية فإن كيرالا تغور وتغلي (...)

عندما قدمت لأول مرة إلى شمال الهند شعرت وكأنني أعيش في عصر آخر. ومع ذلك، فإن كيرالا مجتمع معقد لأنها تقدمية وتسود فيها عقلية ضيقة الأفق في الوقت نفسه. وحتى بين المسيحيين السوريين - الذين يعدون الأقدم وينتمون إلى الديانة المسيحية الأرثوذكسية - تجد بعض التعقيدات الخاصة بالبعد الاجتماعي الطائفي. خذ على سبيل المثال الأحزاب الشيوعية وستجد أن قادتها من الطبقات الاجتماعية العليا، وهم عندما يخوضون المعركة الانتخابية يختارون مرشحيهم بعناية فائقة بحيث يمثل هؤلاء المرشحون الطبقة الاجتماعية السائدة التي تتطابق مع «رصيد أصواتهم الانتخابية» - وهذا مثال لكيفية عمل الشيوعية على تسخير النظام الطبقي الاجتماعي التقليدي في الحصول على السلطة في الديمقراطية «التمثيلية».

بلى، إن كيرالا معروفة بانخفاض نسبة الأمية فيها، لكن نوعية التعليم نفسه مروعة. إن جامعة

كيرالا هي من بين أرقأ الجامعات في الهند (...)

لأن كيرالا مزقة بحرب ضروس بين السياسات، فلا أحد يبدو منسجما مع الآخر فيها. هناك مئات

من الحركات، ولذلك فإن كل شيء يبقى متجمدا في نوع من الموت التخشبي على الصعيد السياسي.

ديفيد بارساميان: ما هو وضع النساء بعامة في كيرالا؟ هل هو مختلف عن وضع بقية النساء في الهند

واضعين في الحسبان مستويات التعليم المتقدمة؟

أرونداتي روي: أعرف أن الناس يقولون إن الولادات انخفض عددها بسبب انتشار التعليم في كيرالا، وربما يكون ذلك صحيحا. لكن ما عليك إلا أن تشاهد صناعة السينما في مالايالام لتشعر بالغبان نتيجة المعاملة التي تلقاها النساء، ونتيجة تصرف النساء كذلك. في طفولتي كل فيلم شاهدته كانت البطلة فيه تتعرض للاغتصاب، وعندما وصلت سن الخامسة عشرة أصبحت مقتنعة أنه ما من امرأة إلا وتعرضت للاغتصاب. كل ما في الأمر أن الواحدة منا كانت تقف بالدور لكي تغتصب. تلك كانت حالة الذعر التي غرست في قلوب الفتيات الصغيرات.

أمي شخصية معروفة في كيرالا لأنها ربحت عام 1986 دعوى قضائية عامة. لقد قدمت اعتراضا على قانون الميراث المسيحي السوري الذي يقول إن المرأة يمكن أن تترك ربع أملاك والدها، أو خمسة آلاف روبية، أيهما أقل. وحكمت محكمة العدل العليا في حالتها بإعطاء النساء حصة مساوية للرجل في ميراث أبيه، وبتطبيق هذا الحكم بأثر رجعي حتى عام 1956، لكن لم تذهب امرأة واحدة إلى المحكمة للحصول على حقها. كل واحدة منهن كانت تقول: «ليس بالإمكان الحصول على ذلك الحق بأثر رجعي حتى عام 1956، لأن المحاكم سوف تكتظ بالمدعين.»

في الحقيقة لم يحدث شيء من ذلك أبدا. الكنائس تعترف بالطبقات كما هي. إنهم يعلمون الآباء كيف يحرمون بناتهم من الميراث. إنه نوع غريب من الاضطهاد ما يحدث هناك. إن النساء اللواتي ينتمين إلى كيرالا يعملن في أنحاء الهند كلها، وفي العالم بأسره، وعدد لا يحصى من راهبات العالم وممرضاته من كيرالا. إنهن يرسلن الأموال التي يجنيها جميعها إلى عائلاتهن؛ والممرضات اللواتي يتقاضين مبالغ كبيرة من المال نسبيا، يتزوجن فيدفعن المهور، لكنهن ينتهين إلى أسوأ نوع من علاقات الخضوع لأزواجهن. ترعرعي في قرية صغيرة في كيرالا كان بمثابة كابوس بالنسبة لي. كل ما أردت فعله هو الهرب، السفر بعيدا، أن لا أتزوج واحدا من قريتي. لا أقصد بالطبع أن الرجال كانوا يقفون بالدور لطلب يدي [تضحك]. كنت أسوأ ما يمكن أن تكونه الفتاة: نحيلة، سوداء، وماكرة. لا جمال، لا مهر أستطيع تقديمه، لا شيء لا شيء إطلاقا.

ديفيد بارساميان: أمك ماري تجاوزت حدود المسموح.

أرونداتي روي: لقد تزوجت هندوسيا بنغاليا، لكن ما هو أسوأ أنها قامت بتطبيقه، وهو ما عنى أن

كلا منهما وافق في النهاية على أن الحب والزواج خارج الطائفة هو أمر فظيع .

ديفيد بارساميان: كيف كان شعورك وأنت تكبرين في غياب والدك عنك، وعن البيت ؟

أرونداتي روي: في كيرالا يمتلك كل شخص ما يدعى «ثارافاد»، أي بيت الأجداد . فإذا لم يكن لديك أب فأنت لا تملك «ثارافاد» . أنت شخص بلا عنوان . لقد ترعرعت في إيمينييم، وهي القرية التي تقع فيها أحداث روايتي «إله الأشياء الصغيرة»⁵ . لكن بالقياس إلى المسار الذي اتخذته الأحداث فإن من السهل بالنسبة لي أن أشكر الله أنني لم أمر بالشروط ذاتها التي تمر بها الفتاة الهندية المنتمية إلى الطبقة المتوسطة . لم يكن هناك أب في حياتي، لا حضور لهذا الرجل «الذي يعتني» بنا ويضرب أمنا ويهينها من حين لآخر . لست ابنة طائفة اجتماعية، لا دين لي، لا أحد يراقبني ويعد علي سكناتي .

كان واضحا بالنسبة لي منذ البداية، وكما أفهمني الجميع حولي، أنني لن أتلقى الرعاية التي استحققتها الأطفال الآخرون . أي شيء كان يمكن أن يحدث لي . كان الموت واحدا من هذه الأشياء الممكنة . لكن لأن ذلك لم يحدث فقد أتاحت لي الفرصة لأشهد ما يحدث الآن . لست ريفية، لا أنتمي إلى المدينة، ولست «تقليدية» تماما كما أنني «لا أنتمي إلى الحدائثة» بكل مشاعري . لقد نشأت في القرية . رأيت الهند الريفية على حقيقتها، لكنني أخذت قسطي من التعليم . إن الأمر يشبه كما لو كنت تتربع على قمة قاع كومة من الركام - دون أن تتصف بقلة الإدراك والحدودية الذهنية التي لدى المضطهدين أو يكون لديك الإحساس بالرخاوة والدلال الذي لدى ميسوري الحال . إن عدد الفتيات الهنديات اللواتي تقول لهن أمهاتهن : «بغض النظر عما يؤول إليه حالكن فلا تتزوجن . ولا تمنن في فراش رجل حتى تكن مستقلة اقتصاديا» لا بد أن يكون قليلا . كانت النصيحة مقنعة - رغم أنني لم استمع إليها [تضحك] . عندما أرى العرائس وهن يرتدين ثياب العرس ويحضرن أنفسهن للتضحية أصاب بطفح جلدي . أجد أن الواحدة منهن تشبه الغولة، وأن ذلك الأمر كله الذي يحدث في الهند مخيف ومفزع - أن أرى ذلك الكائن المزوّق، المثقل بالحلى والجواهر برغبته، يدخل مبتهجا حياة الخضوع والعبودية الدائمة .

ديفيد بارساميان: أنت قريبة جدا من أملك هذه الأيام ؟

أرونداتي روي: لقد تركت البيت وكنت وقتها في السادسة عشرة من عمري . حدث ذلك لأسباب كثيرة، ولم أر أُمِّي طوال سنوات عديدة . مثلنا نحن الاثنتين مثل الأمهات والبنات جميعا ولذلك فعلاقتنا معقدة - لكن ذلك لا يعود إلى اختلاف الرؤية السياسية لدى كل منا . تشبه أُمِّي امرأة ضلت طريقها خارج

واحد من أفلام فلليني . لكن أن أكون تربيت في كنف امرأة لم تفكر أن تكون رسالتها في الحياة البحث عن شريك تربط نفسها به شيء رائع بالفعل .

أمي تدير مدرسة في بلدة كوتايم ، وهي ناجحة في عملها ، والناس يسجلون أبناءهم في المدرسة حتى قبل أن يولدوا . لكن أبناء البلدة لا يعرفون تماما كيف يتعاملون معها . أو يتعاملون معي . إن مشكلتنا نحن الاثنتين أننا امرأتان غير تقليديتين . على الأقل يمكن أن نكون غير سعيدتين ، لكننا لسنا كذلك . ذلك ما يقلق الناس : أن تكون لديك تلك الخيارات وتكون سعيدا - مثل ساحرتين .

مدرسة أمي لا تدار بطريقة تقليدية . لقد بدأت بخمسة أو ستة من الطلبة عندما كنت في الرابعة أو الخامسة من عمري . استطاعت أمي إقناع النادي الروتاري في كوتايم بتأجير مدخل بنايته أثناء النهار . في الصباح كان بمقدورنا وضع طاوولات في المدخل وتعلم القراءة والكتابة . وفي الليل كان الرجال يلتقون ويدخنون ويرمون أعقاب سجائرهم ويتكون كؤوس شايهم ، وزجاجات الويسكي التي شربوها في المكان . الرجال المنتمون إلى الطبقة الوسطى في الهند معتادون على ترك قمامتهم للآخرين كي ينظفوها . في الصباح كنا ننظف تلك القمامة ونحول المكان إلى مدرسة . اعتدت أن أصف تلك المدرسة بأنها مدرسة على عجلات تدفع وتطوى . يعرف الناس أن العلم الذي يتلقونه في مدرسة أمي نادر ولا يقدر بثمن . ومع ذلك فإنهم يبدو غير مرتاحين لأنها لا تخضع للقواعد والتعليمات التي يفرضها المجتمع .

الآن أصبح الوضع أكثر تعقيدا بعدما حدث لي منذ نشرت «إله الأشياء الصغيرة» . كنت الأولى التي تتخرج من مدرستها . إنها تملك طريقته في إثبات نفسها - يشبه الأمر كتابة سيناريو فيلم يحوز علامة ب . المعاناة ، والإيمان ، والعمل الشاق ، ثم تتلقى ثوابك أو عقابك . لا تتخيل أن شيئا مثل ذلك يمكن أن يحدث : الطريقة التي كنا نعامل وفقا لها في تلك البلدة ، الوضع الذي كانت عليه الأشياء عندما كنت طفلة بالمقارنة مع الوضع الآن . حتى روايتي لا يعرف الناس كيف يتعاملون معها . إنهم يرغبون في احتضاني والقول «هذه ابنتنا» ، ومع هذا فهم غير راغبين بالتفكير فيما تقوله الرواية ، أي في مجتمعهم والوحشية والقسوة اللتين ينطوي عليهما هذا المجتمع . إنهم يبحثون عن طرق يصفون بها الأجزاء التي لا يرغبون في رؤيتها . إنهم يقولون إن موضوع الكتاب هو الأطفال ، أو شيء من هذا القبيل .

ديفيد بارساميان : رفعت ضدك قضية جزائية في كيرالا لأن أحدهم ادعى أن «إله الأشياء الصغيرة»

هو كتاب فاحش .

أرونداتي روي: اتهمت بأني أخرج الأخلاقيات العامة [تضحك]. كما لو أن أخلاقيات المجتمع كانت طاهرة حتى ظهرت. استدعيت إلى محكمة كوتشين قبل عام أو اثنين، وقد تقدمت بطلب لكي تلغي القضية قاتلة إنها لعدد من الأسباب باطلة قانونيا. كان محاميا الطرفين مستعدين لتقديم حججهما، لكن القاضي قال: «لا أريد أن أنظر هذه القضية. كلما جئت لأنظر فيها فإن صدري يؤلمني» [تضحك]. لقد أجل النظر في القضية ولكنها لا تزال معلقة لم يبت فيها.

ديفيد بارساميان: منذ كتبت روايتك أنجزت عددا من المقالات المميزة. كيف انتقلت من كتابة الرواية وعالم الخيال إلى الكتابة عن أشياء ملموسة محددة، مثل الجسور والنزوح السكاني في وادي نارامادا، والعملة، وشركة إنرون؟

أرونداتي روي: يبدو الأمر وكأنه عملية تحول بالنسبة للآخرين فقط. عندما كنت في سنتي الرابعة في كلية هندسة العمارة عرفت أنني لن استمر في ممارسة المهنة، لأن ذلك سيعني أنني سأكون جزءا من سلسلة من عمليات الاستغلال القبيحة. وأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك. كنت مهتمة بموضوع التمدين وتخطيط المدن، أي كيف تصبح المدن ما هي عليه وكيف تؤثر على ساكنيها.

كنت أمارس هذا النوع من العمل منذ كان عمري واحدا وعشرين عاما. لكن الأمر يبدو وكأنه انتقال من عالم إلى آخر بالنسبة للآخرين الذين عرفوني بعد «إله الأشياء الصغيرة». لقد كتبت مقالات سياسية قبل أن أكتب الرواية.

أنا شخصيا لا أرى فرقا كبيرا بين «إله الأشياء الصغيرة» وكتاباتي غير القصصية. إنني في الحقيقة أشدد على الدوام بأن الرواية هي من بين الأشياء الأكثر واقعية، فعالم اليوم الذي يسود فيه التخصص شديد البشاعة، والمتخصصون والخبراء ينتهون إلى تدمير الروابط بين الأشياء، وعزلها عن بعضها، بل إنهم يرفعون حواجز بينها مانعين الأشخاص العاديين من فهم ما يحدث. إنني أحاول أن أفعل العكس: أن أوجد روابط، أن أصل بين النقاط، أن أحكي عن السياسة وكأنني أروي قصة، أن أحقق التواصل وأجعل الأشياء تبدو حقيقية. أحاول أن أوجد رابطا بين الرجل وابنه بحيث نعرف عن القرية التي عاشا فيها قبل أن يغمرها الفيضان، ومنظمة التجارة العالمية وصندوق النقد والبنك الدولي.

إن «إله الأشياء الصغيرة» كتاب يربط الأشياء الصغيرة للغاية بالأشياء الكبيرة الهائلة. يحدث ذلك بغض النظر عن كون ما أصوره عنكبوتا صغيرا يحبو على سطح الماء في بركة صغيرة، أو طبيعة ضوء القمر

المنعكس على وجه النهر، أو التاريخ والسياسة اللذين يقتحمان على الناس حياتهم، وبيوتهم، وغرف نومهم، وفراشهم، وأدق تفاصيل حياتهم الخاصة - الآباء والأطفال، والأحفاد... إلخ.

إذا فقدت هذه الروابط فإن كل شيء يصبح مجرد ضجيج، بلا معنى، خطة لمواصلة المهنة وانتظار الارتقاء في الوظيفة. إنك لا تعالج أعراض المرض، لا تقول: «ها هنا بقعة ظهرت على الجلد، سأكتب لك بعض الكورتيزون»، بل تسأل: «ما الذي تسبب بهذه البقعة؟ كيف ظهرت؟ ماذا يعني وجودها على الجلد؟ بماذا تفكر اليوم؟ هل أنت سعيد؟ لماذا قام جسمك بإنتاج مثل هذه البقعة؟» ليس بإمكانك أن تكون مجرد خبير في الأمراض الجلدية. عليك أن تفهم كيف يتفاعل جسم الإنسان وعقله.

ديفيد بارساميان: تكلمت عن عملية استعمار المعرفة والتحكم بها مثل طائفة اجتماعية براهمية تقوم ببناء الأسوار حول نفسها. كيف تتصورين أن تكون العلاقة بين المعرفة والقوة والسياسة؟
أرونداتي روي: في طول العالم وعرضه يناضل الناس اليوم من أجل الحصول على حقهم في الوصول إلى المعلومة لأن المؤسسات التي تتحكم في العالم اليوم - منظمة التجارة العالمية، وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي - تعمل بسرية تامة. إن العقود التي توقعها الحكومات مع الشركات المتعددة الجنسية، وهي عقود تؤثر على حياة الناس تأثيراً عميقاً، هي وثائق سرية (...).

أصبحت المسافة بين من يملكون القوة ومن لا يملكونها، بين من يتخذون القرار ومن يعانون نتيجة هذا القرار، هائلة جداً. إنها رحلة محفوفة بالمخاطر بالنسبة للفقراء - إنها شَرَكٌ مليء بالأكاذيب والقسوة والظلم. إن الموظفين البيروقراطيين، الجالسين في واشنطن أو جنيف في مكاتب البنك الدولي أو منظمة التجارة العالمية، لديهم السلطة ليقرروا مصير الملايين. ليست قراراتهم وحدها ما نسعى إلى الاعتراض عليه، ففي الحقيقة أن لديهم القوة لاتخاذ تلك القرارات. لا أحد انتخبهم، لا أحد حولهم بالتحكم في حياتنا. وحتى لو كان بإمكانهم اتخاذ تلك القرارات فذلك غير مقبول سياسياً.

ديفيد بارساميان: مضى على مقابلتنا الأخيرة تسعة عشر شهراً. هل يمكن أن تخبريني عن الجديد في القضية المرفوعة ضدك في محكمة ولاية كيرالا بخصوص روايتك «إله الأشياء الصغيرة». كان الإدعاء يقول بأنك «تخربن الأخلاقيات العامة. ما الذي حصل منذ ذلك الوقت في القضية؟»

أرونداتي روي: حسناً، لم يحصل جديد في القضية. إنها لا تزال تنتظر في المحكمة، لكن اخامي يقول كل ستة أشهر تقريباً: «سوف يكون هناك جلسة استماع، هل بإمكانك الحضور؟».

هذه طريقة من الطرق التي تتحكم فيها الدولة بالناس . عليك أن تدفع للمحامي ، أو أن ترفع ضدك قضية جنائية في المحكمة ، لكنك لا تعرف ما الذي يحصل معك . لا تتعلق المسألة بكونك ستحاكم في النهاية ، ويصدر ضدك حكم أو لا يصدر ، بل بالإزعاج والمضايقة . إنهم يرغبون في أن يظل الوضع معلقا فوق رأسك دون أن تعرف ما الذي سيحصل فيما بعد .

ديفيد بارساميان: منذ فترة قصيرة تم الحكم عليك بتهمة تحقير المحكمة من قبل محكمة العدل العليا الهندية ، ومن الواضح أن ذلك تم على خلفية نقدك لسماح المحكمة بالاستمرار في أعمال البناء في مشروع سد وادي نارمادا . كان يمكن أن يحكموا عليك بالسجن لسته أشهر ، لكنهم اكتفوا بسجنك يوما واحدا ودفع غرامة صغيرة .

أرونداتي روي: إنها المكارثية – تحذير الناس بأن انتقاد المحكمة قد يهددك مهنيا . عليك أن توكل محامين ، تمثل أمام المحكمة ، وفي النهاية قد لا تحاكم . من يستطيع أن يغامر في مثل هذا الوضع ؟

ديفيد بارساميان: أخبريني بخصوص فيلم أردانا سيث DAM/AGE .

أرونداتي روي: عندما يطلب مني الناس صناعة أفلام عني فإنني أرفض . لكن طلب عمل الفيلم الذي ذكرت جاء بعد الجلسة الأخيرة التي عقدتها محكمة العدل العليا لحاكمتي ، أي في اللحظة التي أيقنت فيها أنهم سيحكمون علي بطريقة أو أخرى . لم أكن أعلم المدة التي سيحكمون بها علي . كنت منزعة للغاية ، وفكرت بأنني إذا كنت سأقضي وقتا ، طال أو قصر ، في السجن فعليّ أن أعبر عن وجهة نظري وأوصلها للعالم .

في الهند تخاف الصحافة من المحكمة ، لذلك لم تشر الصحف إلى القضية . ما نشر من أخبار كان من نوع صحافة الإثارة الرخيصة . ومع هذا ما الذي يعنيه تحقير المحكمة؟ ما الذي يفهمه عامة الناس بخصوص هذا القانون؟ لم يتم نقاش أي شيء من هذا القبيل . لذلك وافقت على عمل الفيلم ببساطة لأنني كنت متوترة ، ورجبت أن يعرف الناس ما يدور حوله النقاش .

ديفيد بارساميان: في واحد من أكثر مقاطع الفيلم إثارة تتحدثين عن شخص يدعى بهاجي بهاي ، هل لك أن تحدثينا عنه ؟

أرونداتي روي: بهاجي بهاي مزارع من غوجارات ، من قرية صغيرة تدعى أوندافا . عندما قابلته أول مرة قلت لنفسني : «أنا أعرف هذا الرجل ، لقد رأيته في مكان ما» . لكنني لم أقابله من قبل . ثم تذكرت أن

صديقا لي أنتج فيلما عن سنوات نارمادا كان قد أجرى حديثا مع بهايجي بهاي . كان قد خسر حوالي سبعة عشر هكتارا من مجموع أرضه التي تبلغ مساحتها تسعة عشر هكتارا بسبب أعمال الري في قناة غوجارات . ولكونه خسر هذه الأرض في أعمال القناة ، حيث انطمرت تلك الأرض تحت منطقة تخزين الماء ، لم يعامل بوصفه متضررا من المشروع ، ولم يتم تعويضه لهذا السبب . أصبح الرجل فقيرا جدا ، ولا أتذكر كم قضى من السنوات يروي قصته للغرباء . كنت واحدة من الغرباء الذين روى لهم قصته أملا في أن يتدخل شخص ما يوما ويصحح هذا الظلم الكبير الذي أصابه .

ديفيد بارساميان: كتبت في آخر مقالة لك «أقبل شهر أيلول» أن الموضوع الذين تتحدثين عنه على الدوام هو العلاقة بين حيازة السلطة وعدم حيازتها . كتبت أيضا عن «فيزياء السلطة» ما يشير اهتمامي هو استعمال تعبير «الفيزياء» ، وقد استعملت من قبل تعبيرا رياضيا في مقالة أخرى «علم الجبر الخاص بالعدل اللانهائي» . ما الذي تعنيه بالضبط بذلك ؟

أرونداتي روي: تتسبب السلطة غير المقيدة بظلم مفرط كالذي تحدثنا عنه هنا . في النهاية هذا يقود إلى تخريب بنوي . إنني مهتمة بفيزياء التاريخ ، فنحن نعرف على صعيد التاريخ أن كل إمبراطورية تتجاوز نفسها ثم تنفجر من داخلها ، ثم تصعد واحدة أخرى لتأخذ مكانها .

ديفيد بارساميان: لكن هل ترين أن ذلك الظلم المفرط مقيم في أساس السلطة نفسها ؟ هل تتحدثين عن شيء محتوم لا سبيل إلى التخلص منه ؟

أرونداتي روي: قد يكون تعبير «محتوم» هنا جريا . أظن أن السلطة غير المقيدة تنطوي على بعض أنماطها السلوكية ، على حمضها النووي الخاص بها . عندما تصغي إلى جورج بوش وهو يتحدث تشعر بأنه لا يمتلك منظورا خاصا لأنه يتصرف وفق حافز مجنون يهيمن على ملك مخبول . إنه لا يسمع المهمات في جناح الخدم . إنه لا يسمع حديث الرعايا في العالم . إنه يورط نفسه في وضع بعينه ولا يمتلك القدرة على التراجع .

ومع ذلك ، فكما أنه أمر محتوم تلك الرحلة التي يندفع فيها الأقوياء فإن المنخرطين في المقاومة لا يستطيعون التراجع هم أيضا . وإذا كانت السلطة تمتلك فيزياءها الخاصة فإن أولئك الأشخاص الذين يعارضون السلطة لهم فيزياءهم كذلك . أحيانا أفكر بأن العالم مقسوم بين من يقيمون علاقة مريحة مع السلطة وأولئك الذين يمتلكون معارضة طبيعية لتلك السلطة .

ديفيد بارساميان: أمضيت مؤخرا أسبوعين في الولايات المتحدة. تكلمت في نيويورك وسانتافي، ثم توجهت في رحلة إلى أجزاء من نيو مكسيكو. ما تظنين حول ارتفاع مستوى المعيشة غير العادي الذي يتمتع به الناس في أمريكا، والظمن الذي يجب أن يدفعه العالم النامي لتحافظ أمريكا على مستوى العيش الذي وصلته؟

أرونداتي روي: لا يعني ما قلته أنني لم أقم برحلة إلى أمريكا أو بلد غربي من قبل. لكنني لم أعش هنا، ولا أظن أنني أستطيع أن أفعل. لم أعود على أبواب تنفتح من تلقاء نفسها بمجرد وقوفك أمامها، أو النظر إلى المتاجر التي تتكدس فيها البضائع. لكن وأنا هنا لا أشعر بالضرورة أن علي القول: «آه، انظروا كثرة ما يملكون، وقلة ما تملك»، لأنني ببساطة أظن أن الأميركيان أنفسهم يدفعون ثمننا باهظا لذلك.

ديفيد بارساميان: بأي معنى؟

أرونداتي روي: من حيث الفراغ العاطفي الذي يشعرون به. عندما تجلس لتشاهد فيلم مايكل مور «بولينغ من أجل كولومباين» يداهمك فجأة شعور أن هذه بلاد يعتمد اقتصادها على عدم الشعور بالأمان، على الخوف، والتهديد، وعلى حماية ما تملكه - الغسالة وآلة تنظيف الصحون الأوتوماتيكية، والمكنسة الكهربائية - من هجوم فتلة بحجم حبات البندورة، أو نساء شريرات يلبسن الساري، أو أي نوع آخر من الكائنات الغريبة. إنها ثقافة تحت الحصار. كل شخص يتقدم في عمله يدوس على أخيه، أو أخته، أو أمه، أو صديقه. إنه وضع محزن، وشعور بالوحدة فظيع، وثمان كبير يدفعه المرء من أجل الراحة. أظن أن الناس هنا قد يكونون أسعد في حياتهم لو أنهم تركوا أكتافهم تتهدل وقالوا: «أنا في الحقيقة لا أحتاج هذا. لا أحتاج إلى الحصول على منصب أعلى. ليس ضروريا أن أفوز في مباراة البيسبول. ليس مهما أن أكون الأول في الصف. لا أحتاج أن أكون أغنى رجل في البلدة.» هناك قدر كبير من السعادة يسببه الحب والرفقة، وحتى الخسارة.

ديفيد بارساميان: تكتبين في مقالاتك «أقبل أيلول» أن إدارة بوش تقوم «باستغلال حزن الناس بصورة كلبية» بعد أحداث 11 أيلول «لشن حرب أخرى - هذه المرة على العراق». أنت تتكلمين كثيرا عن العراق وفلسطين، لماذا؟

أرونداتي روي: ولم لا؟

ديفيد بارساميان: لكنك تعرفين أن أمورا مثل هذه لا يرغب معظم الأميركيين سماعها. ليس هناك

الكثير من التعاطف مع الفلسطينيين أو مع العراقيين في الولايات المتحدة.

أرونداتي روي: لكن الكاتب لا يسعى إلى الحصول على أصوات الناخبين. لست معنية هنا برواية قصص يحب الناس سماعها. لا أرغب في دخول مسابقة للحصول على الشعبية بين الناس. إنني أقول ما علي قوله، ونتائج ذلك تكون في بعض الحالات رائعة، وفي حالات أخرى لا تكون مرضية. لكنني لا أرغب في قول ما يريد الناس سماعه.

ديفيد بارساميان: دعينا نتحدث قليلا عن وسائل الإعلام في الولايات المتحدة. تكتبن قائلة: «شكرا لـ"الإعلام الحر" في أمريكا لأن معظم الأمريكيان يعرفون القليل» عن سياسة الحكومة الأميركية الخارجية. أرونداتي روي: بلى، إن أمريكا مكان معزول بصورة تدعو إلى الاستغراب. عندما تأتي إلى هنا أنت الذي تعيش بعيدا عنها، فإنك تصدم للعزلة التي يعيشها هذا البلد. يبدو البشر هنا مرتبكين، مستغربين مما يفكر به الآخرون، وذلك بسبب العزلة وانسداد الآفاق من حولهم. قبل أن آتي إلى هنا أتذكر أنه دار بخاطري أنني عندما أكتب عن السدود والقنابل الذرية في الهند فإنني أعلم تمام العلم أن النخب في الهند لا ترغب في معرفة أي شيء عن السدود. لا يرغبون في معرفة عدد الأشخاص الذين هجروا من ديارهم بسبب السدود، كم من الفطاعات ارتكبت لتأمين مكيفات الهواء والكهرباء لراحتهم. يحدث ذلك لأن امتيازات النخبة لا تتضمن العيش الرغيد، فقط، بل العيش الرغيد بضمير مرتاح. أشعر أن الوضع هنا يشبه الوضع هناك، فربما يكون الناس هنا غير راغبين في معرفة أي شيء عن العراق، أو أمريكا اللاتينية، أو فلسطين، أو تيمور الشرقية، أو فيتنام، أو أي شيء بحيث يعيشون هذه الحياة السعيدة في ضواحي المدن. لكنني أعيد التفكير بذلك. فلنفترض أنك تعمل سمكريا في ميلووكي، أو كهربائيا في دنفر. إنك تذهب للعمل ثم تعود للبيت بعد أن تكون أنهكت. إنك تقرأ صحيفتك وتشاهد السي. إن. إن أو فوكس نيوز، ثم تذهب للنوم. إنك لا تعلم ما تفعله الحكومة الأميركية. والناس العاديون متعبون للقيام بهذا الجهد ومعرفة ما تخطط له الحكومة. إنهم من تم يعيشون في هذه الفقاعة الصغيرة التي تتألف من كثير من الإعلانات والقليل جدا من المعلومات.

ديفيد بارساميان: تحدثت مؤخرا إلى عدد من الطلبة في نيو مكسيكو، ونصحتهم أن يسافروا إلى بلاد أخرى غير الولايات المتحدة، وأن يلصقوا آذانهم بالحائط ويستمعوا إلى الهمس الذي يدور من حولهم. ما الذي كان يدور في ذهنك عندما وجهت لهم تلك النصيحة؟

أرونداتي روي: عندما تعيش في الولايات المتحدة، وكل هذه الضجة التي يصدرها السوق الحر من حولك، ضجة القوة العسكرية الضخمة، ضجة كونك تعيش في قلب الإمبراطورية، فمن الصعب عليك سماع همس بقية العالم من حولك. لكنني على يقين بأن كثيرين من مواطني الولايات المتحدة يرغبون في سماع ذلك. لا أظن أنهم جميعا متواطئون مع فكرة الإمبراطورية. وهؤلاء غير المتواطئين يرغبون في سماع قصص أخرى من العالم، سماع أصوات أخرى، أشخاص آخرين.

ديفيد بارساميان: بلى، أنت تقولين على الدوام إن من الصعب على المرء أن يكون مواطنا في إمبراطورية. كتبت أيضا عن 11 أيلول. قلت أيضا إن «الإرهابيين يجب أن يحاسبوا». لكنك تسألين أيضا: «هل الحرب هي السبيل الأفضل لتعقيهم؟ هل إشعال النار في كومة القش يساعدك على العثور على الإبرة؟»

أرونداتي روي: عبر الاستعانة بخطاب حكومة الولايات المتحدة عن الحرب ضد الإرهاب، قرر السياسيون في العالم كله أن هذه الوسيلة هي الأفضل من أجل تصفية حسابات قديمة. إن الجميع يستعيرون هذا النوع من الخطاب، بغض النظر إن كان هؤلاء الحكومة الروسية في مطاردتها للشيشان، أو إرييل شارون في حربه ضد الفلسطينيين، أو الحكومة الهندية في مشروعها الفاشي ضد المسلمين، خصوصا في كشمير (...)

رد فعل الولايات المتحدة على 11 أيلول منح الإرهاب مكانة رفيعة. لقد أعطاه دفعا هائلا، وجعله يظهر بوصفه الوسيلة الفعالة الوحيدة لكي يسمع صوت مرتكبيه. وبمرور الوقت سوف يقضى على أية حركة تدعو إلى المقاومة اللاعنفية، سوف تتجاهل تلك الحركة وتنسى. لكن إذا كنت إرهابيا فسوف تكون هناك فرصة كبيرة للتفاوض معك، لكي تظهر على الشاشات، لتحظى بكل الاهتمام الذي لم تحلم به أبدا.

ديفيد بارساميان: تعرفين التعبير القديم: «الجمال في عين الرائي». قد يكون «الإرهابي» يتخذ المكانة نفسها. أفكر مثلا بإسحق شامير، ومناحيم بغير اللذين اعتبرهما البريطانيون في فترة الانتداب إرهابيين، والآن يعدان بطلين وطنيين في إسرائيل. نيلسون مانديلا كان أيضا يعد إرهابيا في وقت من الأوقات.

أرونداتي روي: عام 1987 عندما رغبت الأمم المتحدة بإصدار قرار بخصوص الإرهاب الدولي كانت الدولتان الوحيدتان اللتان عارضتا القرار هما إسرائيل والولايات المتحدة، لأنهما في ذلك الوقت لم ترغبا في الاعتراف بالمؤتمر الوطني الإفريقي والنضال الفلسطيني من أجل التحرر وتقرير المصير.

ديفيد بارساميان: منذ أحداث 11 أيلول، فإن الأشخاص الذين يظهرون بصورة منتظمة مثيرة للملل

على شاشات التلفزيون، وخصوصاً في الولايات المتحدة، يستخدمون كلمات ونستون تشير تشل. إنه يحظى بإعجاب شديد لشجاعته، وهو لذلك مثال يحتذى لاستقامته وصدق رأيه. في «أقبل أيلول» توردين اقتباساً شديداً الغرابة من ونستون تشير تشل لم نسمع به من قبل. هل لك أن تذكره لنا؟

أرونداتي روي: كان يتكلم عن النضال الفلسطيني، وقال ما يلي: «لا أؤمن أن كون الكلب قد أقام في البيت لفترة طويلة يمنحه الحق في هذا البيت، لأنه ببساطة أقام فترة طويلة فيه. لا أؤمن أنه ارتكب أي خطأ بحق الهنود الحمر في أمريكا، أو بحق السود في أستراليا، لأنهم ببساطة قد استبدلوا بعرق أقوى وأرقى.

ديفيد بارساميان: قال ذلك عام 1937، أليس كذلك؟

أرونداتي روي: نعم.

ديفيد بارساميان: تنهين مقالتك بقولك: «الحرب هي السلام»، وتتساءلين: «هل تخلينا عن حقنا في الحلم؟ ألا زال ممكناً بالنسبة لنا إعادة تخيل الجمال؟

أرونداتي روي: كتبت هذا الكلام في لحظة يأس. لكن علينا ككائنات بشرية أن لا نكف عن ذلك السعي. علينا أن لا نكف أبداً، بغض النظر عما يقوله أو يفعله بوش، أو تشير تشل، أو موسوليني، أو هتلر، أو أي شخص آخر. لا نستطيع تجاهل مسعانا الشخصي للسعادة والجمال واللطف والرفقة. بالطبع فإن من حقنا أن نشعر باليأس أحياناً، إذ سنتجرد من بشريتنا إن لم نفعل. لكن دعنا لا نستسلم أبداً لذلك اليأس.

الترجمة والتقديم لفخري صالح
عمّان